الأزمة الأوكرانية وسمات التغيير في التوازن الدولي

د. أرشد مزاحم مجبل*
أكاديمي وباحث من العراق

* كلية القانون والعلوم السياسية ـ الجامعة العراقية

المقدمة

أطاحت (انتفاضة) الأوكرانيين بالرئيس يانكوفيتش الموالي لروسيا، وأعاد البرلمان الأوكراني العمل بدستور سنة 2004، الذي يعزز من سلطتي البرلمان ورئاسة الحكومة، وأسقط قانون منع التظاهر، وأصدر قانون بالإفراج عن يوليا تايموشنكو، إيذاناً بخروج البلاد من الفلك الروسي، والدخول في الفلك الأوروبي، ردت روسيا ومؤيدوها باحتلال برلمان منطقة القرم، وتشكيل حكومة جديدة موالية لموسكو، وباستفتاء حول مصير (القرم)، لكن لا يبدو أن أمام روسيا الكثير من الخيارات؛ فهي لا يمكنها العودة لأوكرانيا إذ يرفضها الملايين، وأنه لا يمكنها القبول بهذه الهزيمة الاستراتيجية، لهذ يعد التحرك العسكري الروسي في القرم رد محدوداً على خسارة جيو سياسية كبرى، وبالمقابل لا يبدو أن الفريق الغربي أحسن حالاً، فأقصى ما يستطيع فعله هو معاقبة روسيا دبلوماسيًا وماليًا واقتصادياً وهذا ما سنعرضه في هذه الأوراق.

هكذا ككرة الثلج تدحرجت الأزمة الأوكرانية، تظاهرات فمواجهات مع القوى الأمنية وسقوط قتلى، ثم توسعت سيطرة المعارضين لحكم الرئيس «فيكتور يانوكوفيتش»، وصولاً إلى عزله وتغير الوجه السياسي للبلد.

أولاً: لعنة الجغرافيا والتاريخ معاً

يعد التحرك العسكري الروسي في القرم رد محدوداً على خسارة جيو سياسية كبرى.

أحد المعاني التي تُعزى لاسم أوكرانيا: الحافّة أو التخوم، ذلك أن هذه البلاد الممتدة على سهل فسيح، تصل مساحتها

إلى أكثر من 600 ألف كيلومتر مربع[1]، عدّت دائماً حافة الشرق الأوروبي ونهاية غرب القارة. وقد ازدادت الأهمية الإستراتيجية لأوكرانيا بعد انهيار الكتلة الشرقية، حلف وارشو ومن ثم الاتحاد السوفيتي، في سلسلة الأحداث الكبرى من سنتي 1989 ـ 1991[2]، التي وضعت نهاية للحرب الباردة[3]. عندما أعلنت أوكرانيا استقلالها في سنة 199، لم تكن روسيا الاتحادية في وضع يسمح لها بتحدي هذا الاستقلال، بأية صورة من الصور، ولكن أوكرانيا وكييف ومحيطها تعني الكثير لروسيا الاتحادية بل للقومية الروسية[4].

برغم من أن شبه جزيرة القرم كانت منطقة إسلامية عثمانية طوال خمسة قرون، فإن استيلاء الروس عليها في سنة 1773، مثّل انتقاله كبيرة في مصير روسيا، التي أصبح لها للمرة الأولى ميناء في المياه الدافئة وأسطول قرب المتوسط. في حرب القرم 1853 ـ 1856، التي وقفت فيها بريطانيا وفرنسا إلى جانب العثمانيين وانتهت بهزيمة فادحة للروس. وإن كان لروسيا ثلاث بوابات رئيسة: وسط آسيا، والقوقاز، وأوكرانيا، فإن الأخيرة هي أخطرها على الإطلاق[5]، وفي القرن التاسع عشر، كانت أوكرانيا مقسومة بين الإمبراطوريتين النمساوية والقيصرية. وبقيت على هذا النحو حتى سنة 1917، إذ دفع انهيار الإمبراطورية الروسية الجبهة الوطنية الأوكرانية إلى إعلان استقلال أوكرانيا. لكن الانقسام الداخلي أدى إلى نشوب نزاعات بين القوى السياسية المشرذمة التي دخلت في نزاع مسلح تورطت فيه القوى الأجنبية ومنها الجيش الروسي، وفي أوائل عشرينات القرن المنصرم، كانت أوكرانيا مقسمة إلى أربع مناطق تُجسد نفوذ القوى المسلحة على الأرض وهي:

- قسم تابع لروسيا عاصمته كييف إذ كان البولشفيون يسيطرون.
- قسم تابع لبولونيا وهو القسم الذي كان تحت سيطرة الإمبراطورية النمساوية.
- قسم سُمّي «أوكرانيا الصغيرة» وتمّ ضمّه إلى تشيكوسلوفاكيا.
- وأخيراً سُمّي بالـ «بوكوفين» وتمّ ضمّه إلى رومانيا.

ازدادت الأهمية الإستراتيجية لأوكرانيا بعد انهيار الكتلة الشرقية، حلف وارشو ومن ثم الاتحاد السوفيتي.

وشهد القسم التابع لروسيا نهضة صناعيّة كانت الأكثر تطوراً

(1) تقع أوكرانيا في أوروبا الآسيوية إذ يحدّها من الشرق روسيا الاتحادية، من الشمال بيلاروسيا، من الغرب بولندا وسلوفاكيا والمجر، من الجنوب الغربي رومانيا ومولدوفيا، ومن الجنوب البحر الأسود وبحر آزوف.

(2) أوكرانيا هي دولة موحدة تتألف من 24 محافظة، وجمهورية مستقلة ذاتياً «القرم»، وتتمتع اثنتان من المدن بمركزية خاصة وهما كييف، العاصمة وسيفاستوبول التي تضم أسطول البحر الأسود الروسي وفقا لاتفاق تأجير بينهما. وهي ذات نظام نصف رئاسي مع فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، مساحتها الإجمالية (603,700) كم2.

(3) أرشد مزاحم مجبل، الاتفاقيات الأمنية والعسكرية الأمريكية العربية وأثرها على الأمن القومي العربي، دار الكتاب الأكاديمي، عمان/ الأردن، 2013، ص 4.

(4) فأوكرانيا القرن العاشر الميلادي هي المهد الأول للأرثوذكسية الروسية. هذا بالإضافة إلى تعميد الأمير فلاديمير في سنة 988، في أولى خطوات دخول المسيحية لهذه البلاد.

(5) فعبر السهل الأوكراني، مرّت الجيوش الأوروبية الغازية لروسيا في حربين فادحتين، وبالغتي الأثر على رؤية الروس القومية لذاتهم، وعلى رؤيتهم لشروط بلادهم الجيوسياسية: الحرب النابليونية والحرب الألمانية النازية.

في أوروبا آنذاك[6]. ومع بدء تهاوي الجيش الألماني في أواخر الحرب العالمية الثانية، بدأ الجيش الروسي يبسط سيطرته على أوكرانيا بأقسامها الأربعة. وعاشت أوكرانيا في ظل الشيوعية حتى سنة 1991، إذ أدى تفكك الاتحاد السوفيتي إلى إعلان أوكرانيا استقلالها باستفتاء شعبي صوت ضده 10% من سكان أوكرانيا. ومنذ ذلك الوقت تتطلع أوكرانيا (وخاصة سكان المنطقة الغربية) إلى الانفتاح على الغرب وخصوصاً إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، خسارة أوكرانيا، باختصار، ليست خسارة جيوسياسية[7]، وحسب، بل خسارة لجزء من التاريخ والذاكرة ومكونات الهوية الروسية[8].

أما بخصوص إقليم شبه جزيرة القرم[9]، هو إقليم يتمتع بالحكم الذاتي في إطار سيادة الدولة الأوكرانية التي كانت أحد مؤسسي الاتحاد السوفيتي التي انضمت إليه سنة 1922، ويتمتع الإقليم بغالبية سكانية ذات أصل روسي[10]. ويقع إقليم القرم على البحر الأسود وبه ميناء سيفاستبول[11]، وهو حيوي بالنسبة إلى روسيا الاتحادية وطريقها إلى مضيق البسفور ويمثل هو وميناء طرطوس في سوريا نقطتي ارتكاز لروسيا على البحر الأبيض والأسود وطريقها الوحيد إلى المياه الدافئة. هذه من ناحية، اما من الناحية الاخرى، فإن شبه جزيرة القرم لها أهمية اقتصادية كبيرة لروسيا الاتحادية، إذ تبلغ مساحتها (26) ألف كم، وتتمتع بثروات طبيعية مهمة سواءً كانت معدنية أو زراعية.

ولا تقلّ أوكرانيا أهمية، من وجهة نظر الكتلة الغربية والاتحاد الأوروبي، فأوكرانيا، مساحة وسكانًا، هي أكبر دولة أوروبية خارج الاتحاد الأوروبي، الذي يسعى لأن يكون الإطار المستقبلي للقارة، ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا، وخارج الحلف الأطلسي، الإطار الأمني للكتلة الغربية. وتُعدّ أوكرانيا الممر الرئيس حتى الآن لأنابيب النفط والغاز الروسي إلى أوروبا الغربية، ولو كانت أوكرانيا دولة مستقرة ومزدهرة اقتصاديًا ومستقلة بالفعل، مثلما هي النمسا وسويسرا، لما بلغ الاهتمام الغربي ـ الأوروبي بها ما بلغه في السنوات الأخيرة.

ثانياً: أسباب الأزمة الأوكرانية

تنقسم أسباب الأزمة بين ما هو داخلي وخارجي وهي كالآتي:

(6) لكن وكما في مناطق عدّة تحت الحكم الروسي ارتكبت مجازر بحقّ كلّ من حاول التمرد، وخصوصاً في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، مما دفع أكثر من 200 ألف أوكراني إلى الاصطفاف تحت لواء النازيّين في حربهم ضد الجيش الأحمر.

(7) جيوسياسي: هو حقل من حقول «الجيوسياسية»، أي هو نوع من السياسة الخارجية الموجهة بشكل أساسي، بحسب العوامل الجيوسياسية التي تفيد أو تؤثر على التخطيط العسكري والسياسي، للمزيد أنظر: Philip Babcock Gove, **Websters Third New International Dictionary**, (Cambridge, 1967), p37.

(8) لأنها تمثل المجال الحيوي لروسيا الاتحادية، وهى متقدمة في مجالات عدة على رأسها المجال العسكري، إذ أن أوكرانيا ثاني قوة عسكرية في أوروبا بعد روسيا الاتحادية، ويبلغ تعداد الجيش النظامي (788) ألف جندي وتملك أوكرانيا ترسانة نووية ضخمة، تم تسليمها إلى روسيا الاتحادية في إطار معاهدة ستارليت الخاصة بتخفيض الأسلحة النووية الموقعة سنة 1994م، وتملك مصانع للإنتاج الحربي المتقدم وتصدر الطائرات والدبابات. أما في المجال العلمي فأوكرانيا دولة متقدمة جداً خاصاً في مجال الفضاء، وتملك (16) قمراً صناعياً لأغراض الاستكشاف والبحث العلمي وتنتج وتصدر الأقمار الصناعية. للمزيد انظر: ". بي بي سي عربي.

(9) فالموقع الجغرافي لشبه الجزيرة يجعل لها أهمية كبيرة في استراتيجية الأمن القومي الروسي، فتواجد مقر قيادة الأسطول الروسي في البحر الأسود يعود لأكثر من مائتي سنة. للمزيد انظر: ". إيلاف، 1 مارس 2014.

(10) تعد شبه جزيرة القرم في الأصل روسية، إذ يشكل نسبة سكانها الروس 60٪ من سكانها. للمزيد انظر: المصدر السابق.

(11) تضم هذه القاعدة على (300) سفينة حربية روسية، ويعمل بها (26) ألف جندي، للمزيد انظر: الأزمة الأوكرانية تفتح أبواب في السياسة العالمية، جريد العرب.

1. الأسباب الداخلية

عند وصول المعارضة البرتقالية إلى الحكم في أوكرانيا، أخذت الانقسامات التاريخيّة والعرقيّة بين أطياف المعارضة بالظهور إلى العلن. فمن جهة الأحزاب الموالية لروسيا الاتحادية والتي تأخذ جذورها من شرق البلاد تطالب بالانضمام إلى الحلف الاقتصادي مع روسيا الاتحادية، ومن جهة أخرى الأحزاب التقليديّة المعارضة لروسيا الاتحادية كالجبهة الوطنيّة وغيرها يُطالبون بانضمام أوكرانيا إلى الاتحاد الأوروبي وحلف الأطلسي[12]. وبين الاثنين، عاشت أوكرانيا فترة تمزق كبيرة تمثلت بتخوين الأفرقاء بعضهم لبعض، وبلغت الذروة أخيراً بتوقيع الرئيس الأوكراني المخلوع اتفاقيات مع روسيا الاتحادية، لدعم الاقتصاد الأوكراني ومساعدة الحكومة الأوكرانية لمواجهة ديونها المستحقة.

نتيجة لذلك اندلعت التظاهرات في تشرين الثاني ـ نوفمبر من سنة 2013، بدءاً من كييف، بعدما رفض الرئيس الأوكراني «فيكتور يانوكوفيتش»، اتفاقية تؤمن المزيد من التقارب الاقتصادي مع الاتحاد الأوروبي لصالح التقارب مع روسيا الاتحادية[13].

وشهدت تلك التظاهرات زيادة ملحوظة بعد أن عرض الرئيس الأوكراني «فيكتور يانوكوفيتش» على المعارضة برئاسة «أرسينى ياتسينيوك» و"فيتالى كليتشكو» أن يشغلا منصب رئيس الوزراء ونائب رئيس الوزراء[14].

وازدادت وتيرة هذه الاحتجاجات مع بداية سنة 2014م، وأدت إلى مقتل العديد من المحتجين والقوى الحكومية، مما أدى إلى تأجيج الاشتباكات بين قوات الأمن والمحتجين ابتداءً من يوم 20 شباط ـ فبراير من سنة 2014م، وفي ظل تلك الظروف صوت مجلس النواب الأوكراني على عزل الرئيس يانوكوفيتش عقب يومين من ذلك. لكن تحت الضغط العالمي تراجع الرئيس المخلوع وأعطى المعارضة مطالبها، التي لم تكتف بما قد أعلنته سابقاً وطالبت بخلع الرئيس ومحاكمته.

وهنا يمكن أن نقول إن أصل الأزمة الأوكرانية اقتصادية بامتياز، ويتجلى ذلك في العوامل الآتية[15]:

- العامل الأول كان ارتفاع سعر الغاز الروسي المورد إلى أوكرانيا، الذي كبد الاقتصاد الوطني خسائر بلغت نحو 20 مليار دولار.

(12) نلاحظ ان للأزمة جذورها. فأوكرانيا بلد متعدد الإثنيات والأعراق والأديان واللغات، وهو منقسم بين شرق يتكلم سكانه الروسية ويرون في روسيا بلدهم الأم، وفيكتور يانوكوفيتش واحد من هؤلاء، وبين غرب يتكلم اللغة الأوكرانية ويدعو إلى الانضمام لأوروبا.

(13) بدأت احتجاجات الميدان الأوربي في كييف للمطالبة بدخول أوكرانيا إلى الاتحاد الأوربي بعد تعليق حكومة الرئيس فيكتور يانوكوفيتش التوقيع على اتفاقية الشراكة مع الاتحاد.

(14) وهذا ما أدى إلى مظاهرات عنيفة من قبل الأحزاب الموالية للغرب وُجِهَتْ بقمع وحشي من قبل السلطات وأودت بحياة مئات الأشخاص.

(15) إذ بلغ حجم الدين الخارجي 130 مليار دولار وتحتاج إلى 35 مليار مساعدات اقتصادية كحد أدنى وهذا احد أهم الأسباب التي يستخدمها الغرب لإثارة الشباب، وهذا يشكل الدافع لاتجاه بعض إفراد الشعب الأوكراني لتأييد فكرة الانضمام للاتحاد الأوروبي وهم من يمثلون الفئة المأجورة والمدربة في أوروبا التي تعتصم في ميدان الاستقلال في كييف في إطار خطة الولايات المتحدة وتابعها الاتحاد الأوروبي في حصار روسيا عن طريق خلق خنجر داخل أحضان الدب الروسي يدخل في منظومة الحلف الأطلسي، للمزيد انظر: الأزمة الأوكرانية، جريدة الحياة.

تعدّ الولايات المتحدة الأميركية أوكرانيا (ثاني أكبر دول أوروبا الشرقية) من أهم الدول التي يتوجب إدخالها في حضن الحلف الأطلسي .

- العامل الثاني الذي أدى إلى تفاقم الأزمة هو القروض التي تلقتها البلاد في الفترة ما بين سنتي 2008 و2009 من صندوق النقد الدولي، على أن تقوم بتسديدها مع بداية سنة 2012.

- العامل الثالث هو الانخفاض الملحوظ في حجم التبادل التجاري مع شركاء كييف الاستراتيجيين، في الدرجة الأولى روسيا وبعض بلدان رابطة الدول المستقلة.

- العامل الأخير قبول الرئيس الأوكراني المخلوع فيكتور يانوكوفيتش المساعدات الروسية وعضوية الاتحاد الأوراسي برعاية موسكو، وتفضيلها على اتفاق مع الاتحاد الأوروبي[16].

2. الأسباب الخارجية

عند سقوط حائط برلين في سنة 1989م، تخوف الأميركيون من أن تتحد أوروبا وروسيا في نظام اتحادي قد يهدّد تفوق الولايات المتحدة الأمريكية ومكانتها. لذا أخذت الدول الموجودة بين روسيا وأوروبا الغربية (دول أوروبا الشرقية) أهمية استراتيجية كبيرة[17]. وتعدّ الولايات المتحدة الأميركية أوكرانيا (ثاني أكبر دول أوروبا الشرقية) من أهم الدول التي يتوجب إدخالها في حضن الحلف الأطلسي لما لها من بعد جغرافي يلعب دوراً مهماً في المواجهات العسكرية بين الحلف وروسيا، وبدأت الولايات المتحدة الأميركية بالضغط على الاتحاد الأوروبي لبدء عملية التقارب مع أوكرانيا بهدف إدخالها في الاتحاد.

لهذا شجعت الولايات المتحدة الأمريكية المعارضة الأوكرانية على الإطاحة بالرئيس فيكتور يانكوفيش من أجل تحقيق هدفها في القضاء على التواجد العسكري الروسي في القرم المتمثل وأسلفنا سابقاً بالأسطول البحري في قاعدة سيفاستوبول والاستيلاء عليها، وذلك بنزال الوحدات العسكرية الأمريكية في محاولة لتطويق دولة القياصرة[18].

وأنّ صراع النفوذ بين الغرب وروسيا الاتحادية في أوكرانيا والذي ظهر في أزمة الغاز التي نشبت بين الدولتين، أدّى إلى قطع الغاز الروسي عن أوكرانيا وعن أوروبا على الرغم من المخاطر الضمنية من خسارة للسوق الأوروبي.

(16) لان أوكرانيا كانت قد طالبته بقرض يبلغ 20 مليار يورو، ولكن الغرب ربط علاقته بأوكرانيا بالإفراج عن الزعيمة السجينة يوليا تيموشينكو.

(17) وهذه الأهمية برزت عندما لم يلتزم جورج بوش الأب بالوعد الذي أعطاه إلى ميخائيل كورباتشيف والذي ينص على أن تعمد الولايات المتحدة الأميركية إلى حلّ حلف الأطلسي بمجرد أن يحل الاتحاد السوفيتي حلف وارشو، لا بل على العكس عمدت الولايات المتحدة الأميركية إلى إدخال الكثير من دول الأوربية الشرقية إلى هذا الحلف وذلك بهدف زيادة الانقسام بين أوروبا وروسيا.

(18) ويرجع ذلك لأهمية القرم بالنسبة للأمن القومي الروسي. لأن الأخيرة ترى فيها البعد الاستراتيجي الأول الذي يحدد نفوذها في العالم، للمزيد انظر: الأزمة الأوكرانية وتسجيل النقاط الروسية، مقال منشور على الحوار المتمدن.

وهذا ما يدل على أنّ سقوط أوكرانيا في حضن الغرب يُقلل الخيارات الجيوسياسيّة الروسيّة في المنطقة.

ومما تقدم من الممكن ان نقول إن الأهداف الاساسية للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الغربيين تتجلى في الآتي:

- خلق خنجر داخل أحضان الدب الروسي وهو أوكرانيا بضمها للاتحاد الأوروبي بالشكل الذي يسمح بوجود قواعد عسكرية في إطار الحلف الأطلسي وتهديد القاعدة العسكرية الروسية في ميناء سيفاستبول المنفذ الحيوي لروسيا على البحر الأسود.
- تصبح أوكرانيا التابعة للاتحاد الأوروبي بقواعدها العسكرية التابعة للحلف الأطلس فضلاً عن محاولات تكراراً نفس السيناريو مع جورجيا أقصى الشمال الشرقي لتركيا عضوة الأطلسي أيضاً فضلاً عن تهديد القاعدة العسكرية الروسية في ميناء طرطوس المنفذ الوحيد لروسيا على البحر الأبيض عن طريق إسقاط نظام الأسد الموالى لروسيا قد اكتمل الحصار العسكري والاقتصادي الأمريكي للغرب الروسي لتكون مناطق النفوذ الأمريكي من الجنوب إلى الشمال سوريا ثم تركيا ثم جورجيا ثم أوكرانيا.

خلق خنجر داخل أحضان الدب الروسي وهو أوكرانيا بضمها للاتحاد الأوروبي.

- أخيراً محاصرة روسيا، وتقليص مساحات نفوذها، بإثارة التوتر على حدودها وإشغالها بنفسها الأمر الذي يخرجها مضطرة من خريطة الشرق الأوسط كقطب فاعل ومؤثر.

ثالثاً: مواقف الدول الكبرى حيال الأزمة

تتأرجح لغة التصعيد في الأزمة الأوكرانية بين روسيا الاتحادية والغرب «الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية"، صعوداً ونزولاً، بحسب التحولات والتغيرات التي تطرأ على الأراضي الأوكرانية. إذ اختلف الرؤى حيال ذلك، وهنا سوف نعرضها بشيء من الإيجاز.

1. موقف روسيا الاتحادية

فمنذ وصول الرئيس فلاديمير بوتين إلى الرئاسة سنة 2000، وهو متعلق بماضي الاتحاد السوفيتي، ويملك طموحات لعودة روسيا كقوة تحل محل

الاتحاد السوفيتي في المسرح الدولي، وتقارع الغرب، ولا سيّما الولايات المتحدة الأميركية التي تفردت في الهيمنة على العالم[19]، ولذلك يبدو أن طموحات بوتين لإعادة روسيا إلى المسرح الدولي لا تزال قائمة ومستمرة، وكأنه كان مستعداً للسيناريو الأوكراني ويتوقعه، فمنذ اندلاع الأزمة الأوكرانية، وهو على اتصال بهذه الأزمة[20]، وكذلك حاول التأثير في أي اتفاق بين الحكومة الأوكرانية وبين معارضتها، لكن بعد الاتفاق الذي وقع بين الرئيس يانوكوفيتش والمعارضة، قامت المعارضة بإزاحته عن السلطة[21]، وبناءً على ذلك عمدت روسيا باتخاذ عدة أمور هي:

- الدخول للقرم، لحماية قواعدها.
- عدم اعترافها بالحكومة الجديدة.
- شجّعت الأقليات على التمرد على كييف وسلطتها، فضمنت لها وجوداً عسكرياً فيها.
- اخيراً بدأت التفاوض من منطلق القوة في هذه الجزيرة، والتهديد باجتياح الشرق الأوكراني ذي الغالبية الروسية والمعقل الرئيس لحزب الأقاليم الموالي لروسيا.

كل هذه التدابير مجتمعة زادت من الضغط على الحكومة الأوكرانية الجديدة، وعلى داعميها من الدول الغربية.

أما عن العوامل التي جعلت من موسكو تتخذ كل هذه التدابير فيمكن إجمالها في الآتي:

- العامل الأول: منح الثورة في كييف منحت النازيين الجدد الفرصة لاجتياح شرق أوكرانيا، وطرد سكانها الذين يتحدثون اللغة الروسية[22].
- الخوف من الثورة الأوكرانية، من الامتداد الثورة إلى قلب موسكو[23].

لذلك كانت الاستجابة العنيفة من روسيا الاتحادية على الأرض في القرم، وادعائها بأن الثورة تقود إلى الفوضى والفاشية، وهو ما يعد تحذيرا للشعب الروسي نفسه.

وكانت روسيا هددت بأنها ستزيد الرسوم الجمركية على المنتجات الواردة

(19) إذ عبّر عن هذه الطموحات والمواقف في مناسبات عدة، أشهرها مؤتمر ميونيخ للأمن سنة 2007، وكأول مشاركة لرئيس روسي في هذا المؤتمر شن هجوماً لاذعاً على الولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها الرامية إلى تكريس هيمنتها على العالم، وتجاهلها روسيا والقوى الناشئة الأخرى. للمزيد انظر: روسيا تستنفر قواتها العسكرية والسياسية لمواجهة الأزمة الأوكرانية، مقال منشور في جريدة الزمان.

(20) عن طريق اتصالاته مع الرئيس يانوكوفيتش، وتشجيعه له على رفض العرض الأوروبي، عن طريق حزمة المساعدات التي عرضها عليه (15 بليون دولار)، في مقابل تقاربه مع روسيا.

(21) وتولى رئيس البرلمان تسيير البلاد، وصوّت على تعيين رئيس للجمهورية ورئيس للوزراء، للمزيد انظر: علي العنزي، الخيارات في الأزمة الأوكرانية، جريدة القبس.

(22) وهي الذريعة التي تخفي موسكو وراءها السبب الاستراتيجي الحقيقي للتدخل العسكري في القرم، للمزيد انظر: المرجع السابق.

(23) فنجاح ثورة على حدودها قد يشجع مجموعات المعارضة داخل روسيا نفسها، ويعمق إيمانهم بقدرة حشود المتظاهرين على النجاح في مواجهة الحكومات الاستبدادية.

من أوكرانيا إن اقتربت كييف من الاتحاد الأوروبي، كذلك أدانت موسكو التدابير المعادية لروسيا التي اتخذتها السلطات الجديدة في كييف، وأدانت المنحى «الدكتاتوري والأساليب الإرهابية» في أوكرانيا، وأول نتيجة لتغيير الحكم في كييف ستكون على ما يبدو توقيع اتفاق مع الاتحاد الأوروبي والتخلي عن اتفاق التقارب مع موسكو الذي وقعه الرئيس المعزول فيكتور يانوكوفيتش.

2. موقف الولايات المتحدة والدول الغربية

هنالك عبارة شهيرة لونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق تقول «بأنه أذا أردت ان تقضي على الاتحاد السوفيتي عليك بفصل أوكرانيا وروسيا البيضاء عنه». قد يكون ما يحصل اليوم في أوكرانيا هو تطبيق لهذه العبارة، والتي يزيد عمرها عن (70) سنة[24].

(24) فخروج روسيا البوتينية من القوة إلى الفعل خصوصاً بعد الأزمات التي حلت بها بعيد تفكك الاتحاد السوفيتي ومرضها في عهد الرئيس الأسبق بوريس يلتسن في العديد من القضايا اقلق الدول الغربية.

لذلك جاءت المواقف الغربية والأمريكية مخالفة للإجراء الروسي، وتجلى ذلك في خطاب الرئيس الأمريكي (باراك اوباما) بخصوص ذلك، إذ قال محذراً في حال لم تقرر روسيا وضع حدّ للتصعيد، وإذا كانت غير راغبة في العمل مباشرة مع حكومة أوكرانيا ونأمل، فلن يكون أمام حلفائنا من خيار سوى الانضمام إلينا بالمضي قدما إلى ما هو أكثر من الإجراءات التي اتخذناها في الأيام القليلة الماضية لعزل روسيا على الصعد السياسية والدبلوماسية والاقتصادية».

وشدد أوباما على أنه بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي وحلفائهما، فإن «ما تقوم به روسيا يشكل انتهاكا للقانون الدولي»، مضيفا «أعلم أن الرئيس بوتين لديه على ما يبدو تفسير مختلف.. لكن في رأيي فإنه (هذا التفسير) لا يخدع أحداً».

عبارة شهيرة لونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق تقول "بأنه أذا أردت ان تقضي على الاتحاد السوفيتي عليك بفصل أوكرانيا وروسيا البيضاء عنه».

وعلى الصعيد نفسه اتهم وزير الخارجية الأميركي (جون كيري) روسيا بالبحث عن «ذريعة لـ تتمكن من اجتياح أوكرانيا»، محذراً إياها من خطر التعرض لعزلة أذا واصلت السياسة التي تتبناها في هذا البلد.

إلى ذلك دعا الأمين العام للحلف الأطلسي «اندريس فوغ راسموسن» في مؤتمر صحافي في باريس «أدعو روسيا إلى

التراجع والى عدم اللجوء إلى تصعيد الوضع في شرق أوكرانيا"، وأضاف «أذا تدخلت روسيا بشكل أكبر في أوكرانيا فإن ذلك سيشكل خطأً تاريخياً»، محذراً موسكو من عزلة على الساحة الدولية[25].

وشدد راسموسن على «تعدي روسيا غير الشرعي على أوكرانيا هو التحدي الأكبر للأمن في أوروبا في جيل»، في إشارة إلى قيام قوات روسية بالسيطرة على شبه جزيرة القرم الأوكرانية. وكررّ راسموسن أن الأزمة في أوكرانيا حملت الحلف الأطلسي على «مراجعة خططه الدفاعية».

(25) أوباما يحذر بوتين من تبعات التدخل العسكري في أوكرانيا، مقال منشور على شبكة المعلومات الدولية الانترنت، على الرابط: http:// www.alhurra.com/conten

وهنا سؤال يطرح نفسه هل يجوز لمن غزا العراق خلافاً للقانون الدولي وخارج إطار الأمم المتحدة؟ أن يلقن الآخرين دروساً في احترام المبادئ المرعية، ذلك أن القانون الدولي إنما وُضع ليتقيد به الجميع وفي كل الحالات.

3. الموقف الصيني

في رد فعل متباين مع مواقف القوى العالمية تجاه الأزمة الأوكرانية، التزمت الصين بموقف متحفظ، مكتفية بالقول إنها تأمل بإيجاد «حل سلمي» لإنهاء الوضع المتفاقم هناك.

حيث خرجت الكلمة الرسمية الوحيدة من قبل بكين بشأن الصراع الروسي ـ الأوكراني على لسان وزارة الشؤون الخارجية الصينية، ففي مؤتمر صحفي، أكد المتحدث باسم وزارة الخارجية التزام الصين بـ «الاستقلال والسيادة لأوكرانيا والسلامة الإقليمية، ودعا إلى حلّ سلمي للوضع القائم، مع احترام القانون الدولي من قبل كل الأطراف، لكنه لم يشر بالتحديد إلى روسيا أو إلى وجودها العسكري في البلاد.

رابعاً: الأخطاء الاستراتيجية في إدارة الأزمة الأوكرانية

إدارة السياسة الخارجية هي عملية توازن مستمرة بين المصالح والمخاطر، بين المصالح التي تسعى كل دولة إلى تنميتها وتعظيمها، وبين المخاطر التي تنشأ بسبب الصدام مع مصالح دول أخرى، وخلال هذه العملية قد يحدث سوء تقدير للموقف أو أخطاء استراتيجية، ويؤدي ذلك إلى نشوب الأزمات الدولية أو ربما اندلاع الحروب. والأزمة الأوكرانية هي شاهد على مجموعة

تقدر واشنطن أن أوكرانيا هي نقطة تماس مباشر مع الأمن القومي الروسي، وأن موسكو ليس لديها مجال للمناورة أو المرونة.

من الأخطاء الاستراتيجية وسوء التقدير لتداعيات موقف أو قرار من جانب موسكو من جهة، والأطراف الداخلية في أوكرانيا من جهة ثانية، وواشنطن من جهة ثالثة، وتتجلى تلك الأخطاء بما يأتي:

1. الضغط الذي مارسته روسيا على الرئيس الأوكراني فيكتور يانوكوفيتش الموالي لها لإقناعه بعدم التوقيع على اتفاقية للمشاركة مع الاتحاد الأوروبي[26].

2. عمل القوى المعارضة بعد وصولها للسلطة في إلغاء «قانون اللغات» والذي يضمن حق الأوكرانيين من أصل روسي في استخدام اللغة الروسية في تعاملاتهم[27].

3. قيام الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي ـ بتدخلها في أوكرانيا والسعي لتغيير نظام الحكم فيها، وذلك بالدعم المالي والتأييد السياسي وأنشطة المخابرات، ولم تقدر واشنطن أن أوكرانيا هي نقطة تماس مباشر مع الأمن القومي الروسي، وأن موسكو ليس لديها مجال للمناورة أو المرونة عندما يتعلق الأمر بها[28].

خامساً: التداعيات

نتيجة لتغيير نظام الحكم في أوكرانيا ظهرت عدة تداعيات أهمها:

1. في يوم 23 شباط ـ فبراير وكجزء من نتائج الثورة الأوكرانية ألغي قانون اللغة للأقليات (والذي يشمل الأقلية الروسية) وأُعلنت اللغة الأوكرانية لغة رسمية وحيدة للبلاد[29].

2. قيام مجلس الاتحاد الروسي في 1 آذار ـ مارس، بالموافقة في جلسته الطارئة على طلب الرئيس فلاديمير بوتين استخدام القوات الروسية في أوكرانيا.

3. في 4 آذار ـ مارس، علق البنتاجون التعاون العسكري مع روسيا، أوجه هذا التعاون المعلق تضمنت التدريب والاجتماعات الثنائية وتوقف السفن والتخطيط العسكري.

(26) خاصة بعد أن كانت المفاوضات بين الطرفين قاب قوس أو أدنى من الوصول إلى اتفاق. وأوقع ذلك يانوكوفيتش في موقف حرج، فقد مثلت استجابته للضغوط الروسية صدمة لكثير من الأوكرانيين وللآمال التي عقدوها في الحصول على الدعم الأوروبي الاقتصادي والتكنولوجي، وأوجد ذلك فرصة سانحة استغلتها المعارضة ضد الرئيس. للمزيد انظر: أزمة أوكرانيا قد تغيير العالم، جريدة الشرق الأوسط.

(27) أتى هذا القرار كصدمة لمواطني جمهورية القرم وأغلبيتهم من الأوكرانيين الروس.

(28) فالعلاقات الروسية- الأوكرانية هي علاقات تاريخية ممتدة ومتعددة الجوانب العرقية والاقتصادية والثقافية والاستراتيجية، فقد استمرت أوكرانيا جزءا من الإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفيتي من القرن التاسع عشر، تربطهما حدود مشتركة، وتمتد أنابيب الغاز الروسي المتجه إلى أوروبا عبر أراضيها.

(29) جاء هذا القرار ليصب الزيت على النار في لتلك الأقاليم المستاءة أصلا من التغييرات الحاصلة في عاصمتهم. وقد رأت تلك الأقاليم وخاصة إقليم القرم أن خطوة إلغاء قانون اللغات هي دليل على أن المحتجين في كييف يحملون أجندة معادية لروسيا ولهم توجه عنصري.

4. عقب ذلك إجراء استفتاء في القرم في 16 آذار ـ مارس، للانفصال عن أوكرانيا والانضمام لروسيا الاتحادية، جاءت نتيجة الاستفتاء لصالح الانضمام لروسيا بنسبة 95%.

أن التحالف العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية بدأ يفقد أهميته مع اقتراب مهمته في أفغانستان من نهايتها.

5. فرض الاتحاد الأوروبي، ولاحقاً الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، المجموعة الأولى من العقوبات وتجميد الأصول وحظر السفر على بعض المسؤولين في روسيا والقرم[30].

(30) بشير نافع، الأزمة الأوكرانية قد تفجر الصراع على أوربا من جديد، مقال منشور على مركز الجزيرة للدراسات.

6. قيام وزراء خارجية الحلف الأطلسي بإنهاء التعاون المدني والعسكري مع روسيا.

7. أخيراً احتمال أن يؤدي اضطراب صادرات روسيا وأوكرانيا إلى خفض حجم التجارة على الصعيد العالمي وبشكل خاص لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وهي واحدة من المنطقتين الأكثر اعتماداً على القمح المستورد[31].

(31) فروسيا وأوكرانيا منتجان ومصدران زراعيان رئيسيان، وفي عام 2012، بلغت صادرات روسيا وأوكرانيا 11 و5 في المائة من الصادرات العالمية للقمح، واستأثرت أوكرانيا بأكثر من 14 في المائة من صادرات الذُرة العالمية (ثالث أكبر حصة على الصعيد العالمي).

سادساً: سيناريوهات الأزمة الأوكرانية

يسيطر الغموض والضبابية على الحل السياسي للازمة الأوكرانية وخاصة بعد الاستفتاء الذي تم في المناطق الشرقية للدولة، إذ إربك ذلك الحكومة الأوكرانية والدول الغربية الداعمة لها.

وإزاء هذه التطورات المتسارعة في أوكرانيا، ثمة عدة سيناريوهات مستقبلية مفتوحة للأزمة[32]، وهي كالتالي:

1. تقلص دور روسيا الدولي

تراجع دور روسيا في الشؤون الدولية بصفة مؤقتة على أقل تقدير، فقد تم استبعدت موسكو فعلياً من مجموعة الثماني للدول الصناعية، وتجمدت مساعيها للانضمام إلى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية ووكالة الطاقة الدولية. وألغيت لقاءات القمة الغربية مع موسكو حتى إشعار آخر[33].

(32) من الصعب تكهن ما ستؤول إليه الأمور. لكن وصول قادة متمسكين في المقام الأول بربط مستقبلهم بأوروبا وليس بروسيا، يعتبر مشكلة جدية للرئيس فلاديمير بوتين الذي يحلم بإبقاء أوكرانيا في فلك روسيا للتأثير على سياسة أوكرانيا تملك روسيا وسائل عدة بحكم الروابط القوية جداً بين اقتصادي البلدين.

(33) إذ تعثرت محاولة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لاستخدام مجموعة البريكس للقوى الناشئة للتخفيف من حدة العزلة التي فرضها الغرب بسبب قلق الصين والهند بإزاء مشكلة ضم القرم كسابقة لحل نزاعات مثل نزاعي التبت وكشمير. وندد بيان مشترك من مجموعة البريكس بالعقوبات لكنه لم يشر إلى القرم أو أوكرانيا.

2. تنشيط حلف شمال الأطلسي

في الوقت الذي بدا فيه أن التحالف العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة

أن وارسو تريد الإسراع بنشر نظم للدفاع الصاروخي في وسط أوروبا.

الأمريكية بدأ يفقد أهميته مع اقتراب مهمته في أفغانستان من نهايتها وجد نفسه أمام مهمة جديدة، ومن المقرر زيادة الدوريات الجوية للتحالف ومناوراته العسكرية في بولندا ودول البلطيق. وأن وارسو تريد الإسراع بنشر نظم للدفاع الصاروخي في وسط أوروبا. وفي ظل الضغط الأميركي ربما تتجه السويد وفنلندا المحايدتان إلى زيادة جهودهما الأمنية وتعززان تعاونهما مع حلف شمال الأطلسي إدراكا منهما أن روسيا قد تمثل خطرا محتملا عليهما[34].

(34) لكن مع استبعاد تدخل الحلف الأطلسي في أوكرانيا، برغم أنه عبر عن قلقه من الأزمة التي تعصف بالأخيرة، وحذر أمينه العام، من أن أوروبا تواجه أكبر تحد في أمنها منذ جيل، وحذر من أن عواقب لا حصر لها في حال هاجمت روسيا شرق أوكرانيا.

3. العودة إلى أجواء الحرب الباردة

إن استمرار الأزمة وتعميق الانقسام في أوكرانيا التي تموج بتعدد عرقي، إذ تتنوع الجماعات العرقية في أوكرانيا، لتشمل الأوكرانيين وهم الأكبر في النسبة بتمثيلهم نحو(77,8%) من إجمالي السكان البالغ عددهم (45,6) مليون نسمة، طبقاً لتقديرات الأمم المتحدة في سنة، ثم الروس بنسبة (17,3%)، وروسيا البيضاء (0,6%)، وهو الأمر الذي دفع العديد من المراقبين والمعلقين للتساؤل حول ما أذا كانت الأزمة تعد تكراراً لأزمة خليج الخنازير التي وقعت سنة 1961، بين الاتحاد السوفيتي آنذاك والولايات المتحدة الأمريكية والتي وصلت وقتئذ لحافة الهاوية قبل أن يتراجع الطرفان وتنتهي الأزمة بتعهدات دولية متبادلة.

4. تدخل عسكري روسي في أوكرانيا.

برغم تأكيدات كل من الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين ووزير خارجيته، سيرغي لافروف عدم وجود نية بتدخل عسكري في أوكرانيا، إلا أنه غير مستبعد[35].

(35) في واقع الجيو- بوليتيك تعتبر أوكرانيا المجال الحيوي الروسي لجهة الغرب وأوربا تحديداً، لذلك من المستبعد ان تتنازل موسكو عنه ولو دفعت في ذلك ثمناً.

إذ سبق لموسكو أن تدخلت عسكرياً وبصورة مباشرة في جورجيا ضد نظام الرئيس الأسبق لها «ميخائيل سكاشفيلي»، على خلفية تدخله العسكري في إقليم أوسيتا الجنوبية، لضرب القوى المدعومة من روسيا.

5. تمكن الحكومة الأوكرانية استعادة السيطرة على شرق البلاد

في ضوء التصعيدات التي شهدتها عدد من المناطق والمدن بشرق أوكرانيا في الأيام والأسابيع القليلة الماضية، وأعمال الشغب والعنف التي يقوم بها

موالون لروسيا، فإن هذا الخيار على الأرجح غير محتمل، بسبب عدم موالاة الجيش لسلطة كييف واعتماد الأخيرة على القوات الخاصة.

إن حكومة كييف الفتية أثبتت عدم قدرتها على التعامل مع الانفصاليين الموالين لروسيا شرق البلاد.

6. استمرار الوضع الفوضوي الراهن

وهو السيناريو الذي يميل إليه الكثير من المراقبين والمحللين للشأن الأوكراني، إذ إن حكومة كييف الفتية أثبتت عدم قدرتها على التعامل مع الانفصاليين الموالين لروسيا شرق البلاد.

7. سرينة أوكرانيا

أي إدخال أوكرانيا في الأتون نفسه الذي دخلت فيه سوريا، مما يفتح الباب على المفاوضة والمقايضة بين الكبار، فإذا لم يكن العرق سبباً مباشراً للنزاع تكون السياسة والمصالح هي السبب المبطن، ولا سيّما أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين حذر من ان أوكرانيا على شفا حرب أهلية.

8. تقسيم أوكرانيا

هذه السيناريو مفاده تقسيم أوكرانيا إلى دولتين، على غرار الحالة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، مع بعض الفوارق في الظروف والأهداف، قد يكون هذا السيناريو وارد خاصة مع ان أوكرانيا تعدّ في حال المقسمة واقعياً[36].

(36) في هذه الحالة ينقسم النفوذ السياسي بين الشرق والغرب، وتنقسم الديون والالتزامات المالية بين روسيا والغرب، ومن وجهة نظري يسهل ذلك الأمر على روسيا الاتحادية، لكون الأخيرة هي صاحبة أكبر دين لأوكرانيا، على حين يؤثر ذلك على دول الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية بسبب الأوضاع المالية التي تمر بها تلك الدول.

9. سيناريو السلام

يقوم هذا السيناريو على تطبيق اتفاق جنيف الذي تم بين روسيا والغرب والذي يعطي بصيصاً من الأمل حول إمكانية نزع فتيل الأزمة في أوكرانيا بصورة سلمية.

فالقضية الأوكرانية هي قضية لها بُعد قومي وشعبي وجيو سياسي في روسيا، وحماية الأقليات الروسية هي ورقة سياسية بالنسبة إلى الرئيس الروسي.

وختاماً، إن التراجع بالنسبة إلى روسيا صعب جداً، فالقضية الأوكرانية هي قضية لها بُعد قومي وشعبي وجيو سياسي في روسيا، وحماية الأقليات الروسية هي ورقة سياسية بالنسبة إلى الرئيس الروسي، ولمجلس الدوما والعسكريين، ومن الممكن أن يكون التعامل مع الأزمة الأوكرانية رسالة للدول الأخرى في الفضاء السوفيتي بأن روسيا لن تتهاون في

حماية الأقليات الروسية، والجميع يتذكر ما حصل في جورجيا سنة 2008، أما الغرب فالسكوت والاكتفاء بالتنديد والعقوبات لن يثني روسيا عن طموحاتها، ولذلك لا بد من إظهار موقف قوي وحازم، لكن الصراع الأوروبي الداخلي بين ألمانيا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى له تأثير في توحيد الموقف، فضلاً عن التباين الأوروبي ـ الأميركي، تجاه الأزمة وسبل معالجتها، إذ لا يزال الجميع يتذكر كلمات مساعدة وزير الخارجية الأميركي المسربة عن دول الاتحاد الأوروبي في أثناء وجودها في كييف.

أهم الاستنتاجات:

1. بالرغم من أن الأزمة الأوكرانية هي أزمة داخلة نفخت في تفجيرها العوامل الخارجية، فإنها اتسعت وألقت بتداعياتها على العلاقات الأمريكية والروسية ودول الاتحاد الأوربي.

2. ثبات الموقف الروسي في دعم استقلال القرم في المفاوضات الدولية سواءً مع الولايات المتحدة الأمريكية أو مع دول الاتحاد الأوربي. فاستقلال القرم أصبح واقعا وحقيقة لا رجعة فيها بتوقيع الرئيس بوتن في 22 آذار ـ مارس سنة 2014، مراسيم الاعتراف باستقلال القرم.

3. أثبت تطور الأزمة الأوكرانية وتداعياتها بروز روسيا كقطب دولي مؤثر في الساحة الدولية.

4. بينت الأزمة الأوكرانية للعالم أجمع الوجه القبيح للإدارة الأمريكية وزيف ادعائها بحقوق تقرير المصير. فقد أيدت استقلال جنوب السودان وسراييفو وتيمور الشرقية بوصفه حقاً من حقوق الإنسان. لكن تنتهك هذا الحق في القرم وفلسطين.

5. بإمكان روسيا أن تتخذ عقوبات شديدة بحق أوكرانيا بسبب حكامها الجدد المعادين لها مثل إلغاء تخفيض أسعار الغاز الذي تستورده أوكرانيا من روسيا، وطرد العاملة الأوكرانية في روسيا.